بلاد العرب
للعرب

« اذا قال أحدنا « الجامعة الاسلامية » فانما يعني جامعة عربية روحها الاسلام ، واذا قال أحدنا « الجامعة العربية » فانما يعني جامعة اسلامية روحها العروبة . وكل قول يخالف هذا القول ، خطأ ، وكل نزعة تخالف هذه النزعة ، شعوبية خبيثة » .

هل آمنّا ؟

لم نؤمن بعد . ولكن أقول أسلمنا . ولمّا يدخل الايمان في قلوبنا .

إذا كان التسليم بضرورة العمل على انهاض بلاد العرب واقامة مسالف مجدها الخالد على أساس من المدنية الحديثة ، هو أول خطوة في سبيل الايمان بحقنا الطبيعي في الحياة الحرة المستقلة ، فنحن الآن ولا شك في أول مراقي الايمان بأن بلاد العرب ينبغي أن تكون للعرب وحدهم دون بقية خلق الله . ولن تكون بلاد العرب للعرب حتى نؤمن بأن لبلادنا العربية حقًا مقدسًا معلقًا في عنق كل عربي وعربية ، حقًا نشهده أولاً في أنفسنا وفي أخلاقنا وفي عزتنا ، ننظر من خلاله إلى العالم القائم من حولنا نظرة المؤمنين بأننا أبناء أولئك الذين دانت لهم الأرض ، وانها ينبغي أن تدين لنا ، أبناء أولئك الذين أقاموا أسس المدنية الحديثة ، وانها ينبغي أن تكون لنا ، أبناء أولئك الذين فتحوا الدنيا من حدود الصين إلى ضفاف بحر الظلمات ، وان الدنيا ينبغي أن تعترف بوجودنا وتشعر بأن عرب اليوم هم عرب الأمس ، هم ورثة محمد وعمر وأبي بكر وخالد بن الوليد وأمثالهم ممن حطموا أغلال العبودية في الجاهلية والاسلام ، وأقاموا أسس الحرية في عصر لم تعرف فيه الحرية ، واعترفوا بالمساواة بين الناس في عصر لم تعرف فيه إلاّ الفروق بين الأفراد والجماعات ، ونشيدوا صرح الاخاء في عصر لم يعرف فيه إلاّ التباغض والتنافر والتدابر . أولئك الذين شرعوا للناس على قاعدة الفطرة لا على قاعدة الذات ، أولئك الذين

أنكروا ذواتهم فاستطاعوا أن يحققوا الانسانية ذاتيتها ، فأعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، علماً وعملاً . أولئك الذين اتسعت نفوسهم لأكبر قسط من التسمح الديني ذكره تاريخ البشر منذ كان للبشر تاريخ ، أولئك الذين قالوا لا فضل لعربي على عجمي إلاّ بالتقوى ، وان العبد الزنجي إذا علم ، فضّل على العربي إذا جهل ، أولئك الذين وضعوا أول قواعد السياسة العالمية ، وقضوا على سياسة القوميات ، في عصر لم تشرق فيه شمس الفكر الحر قبل أن يكونوا ، برهة واحدة من الزمان .

***

إذا أراد أبناء العرب أن يستعيدوا هذه القمّة ، ويعيدوا ذلك المجد القديم ، فأول واجب عليهم أن يعتقدوا اعتقاداً جازماً لا ريب فيه ان ذلك إنما يرجع إلى أنفسهم أولاً وقبل كل شيء .

إذا كان المجموع في البلاد العربية في هذا العصر ، ضعيف التماسك محطم الروابط مفكك الصلات ، فلا ينبغي أن تقف هذه الظواهر على خطورتها في عقل الفرد ، وتبعث في نفسه اليأس من إمكان تأليف مجموع قوي مترابط متحد في عصر قريب .

ذلك بأن بناء المجموع ومكانته من القوة والعزّة ، يرجع برمته إلى قوة الأفراد . فاذا نظر كل منا في نفسه أوّل شيء ، وراضها على الخلود إلى الحقائق ، وعمل على أن يكون مثلاً أعلى ، لا بالقياس على غيره فقط ولا بالقياس على المجموع الذي هو عضو فيه ، وانما بالقياس على الفضائل العربية التي ورثها العرب عن أسلافهم الأولين ، فان ذلك المصدر وحده ، النبع الأول الذي يزوّد الجماعات العربية في كل دولة من الدول بالقوة المعنوية التي هي في الواقع أجلى مظهر من مظاهر الاتحاد القومي . إذا جرى كل عربي على هذا السنن القويم ، فهنالك يدخل الايمان في قلوبنا ، وتسيطر علينا قوة ذلك الايمان الثابت ، الذي أوحى لأسلافنا بما أوحى .

ينبغي لكل عربي أن يكون في دخيلة نفسه عربيًّا روحاً ونفساً . مثله الأعلى آداب العرب وآداب الاسلام ، وسياسته الدنيوية سياسة العرب وسياسة الاسلام . وبأي شيء يوحي ذلك المثل الأعلى ؟ يوحي اليك بأنك إذا لم تكن حرًّا ، فلست بعربي ولست بمسلم . وانك إذا لم تكن مستقلاً ، فلست بعربي ولست بمسلم . وإذا لم تكن صادقاً ، فلست بعربي ولست بمسلم ، وإذا لم يكن وائدك في الحياة الاخلاص لعروبتك والتفاني في خدمتها ، وإذا لم تكن مريح الفكر واللسان ، وإذا لم تعمل على قتل الشرور بلسانك ويدك ، وإذا لم تعتقد

انك إذا سكتّ عن قول الحق والدفاع عنهُ ، فأنت شيطان أخرس ، إذا لم تكن شيئاً من ذلك ، فلست بعربي ولست بمسلم .

وإنما اقترن الكلام في العروبة بالاسلام، لأن الثابت الذي لا لجاج فيه ولاريب يداخله، أن الاسلام لم ينزل بلغة العرب فقط ، وانما نزل بأخلاقهم وصفاتهم الروحية العليا . فالعربي النصراني مسلم بصفاته العربية ، والمسلم عربي بما في الاسلام من روح العرب . هذه هي الجامعة التي تربط بين العرب على اختلاف عقائدهم وتباين مشاربهم ، وهي أعراض لا تؤثر في ذلك الجوهر شيئاً . فاذا نسيت هذه الحقيقة أو غفلت عنها ، فلست بعربي ولست بمسلم .

***

تقوم الجامعة العربية ،إذا تقدّر لها في العلم القديم أن تقوم، لاعلى الحروف التي تتحرك بها الشفاه ، ولا على الأوراق التي تسوّد بما تسوّد به من السُّطور ، ولا بما يوضع من المبادىء التي نلوكها ولا نؤمن بها ، وإنما هي قبل أن تكون أي شيء من ذلك ، روح تجمع العرب جميعاً حول إيمان بشيء واحد ، هو أن بلاد العرب للعرب .

إذا جمعت هذه الروح بين العرب ، فلا شك عندي في أنها تكون كفيلة بأن تزأب تلك الصدوع التي فرّقت بين العرب في سالف أزمانهم . ولقد تقوى هذه الروح، إذا نحن نسينا كل الأسباب السفلة التي فرّقت بيننا في الماضي . فليس لمسلم أن يقول هذا نصراني وإن كان عربيًّا بالأصل واللغة والوطن والنشأة، وليس لنصراني أن يقول هذا مسلم وإن كان غير عربي، ما دام قد اكتسب صفات العروبة بالبيئة واللغة والدين . هذه هي روح الاسلام ، التي هي لدى الواقع روح العرب أيضاً . هي روح أثينة ثبتت أصولها الأولى في نفوس أهل الجاهلية وربيها الاسلام .

***

أقول مجازفا ثقة بصحة ما أقول إن الاسلام فكرة جامعة ، ومعنى أنه فكرة جامعة أنه دين ودولة . ومهما قيل اليوم بعكس ذلك ، ومهما حاول البعض أن يخرج عن الاسلام هذه الصفة ، ومهما قيدت نظامات الحكم فسيظل الاسلام فكرة جامعة تجمع الدين والدولة في فكرة واحدة هي فكرة الدفاع عن المجموع الذي يستظل بظل الاسلام، مهما تفرقت فيه النحل، واختلفت المذاهب، وتباينت النزعات . فاذا كانت حكومات المسلمين في هذا العصر قد اضطرت مغلوبة إلى مجاراة روح النظام الحديث في المدنية الأوربية، ففصلت بين الدين والدولة، فان هذا الفصل ينبغي أن لا يتعدى إنه فصلٌ في الأوضاع لا في الروح . فكل حكومة من

أوصيك ١ ـ لا تؤجل الى غد ما تستطيع أن تعمله اليوم ٢ ـ لا ترهق أحداً بشيء تستطيع أنت عمله ٣ ـ لا تعمل عملاً قبل أن تحصل عليها ٤ ـ لا تشتر شيئاً أنت في غنى عنه لأنه رخيص ، فقد يكلفك ما لا طاقة لك به ٥ ـ يكلفنا البرد أكثر مما يكلفنا الجوع والعطش والحر ٦ ـ لعلنا لم نأسف أبداً على الاقتصاد في الاكل ٧ ـ ما من شيء فطام برغيسة فيه ثم ندمت ٨ ـ كم تحملنا من الالم ، توقعاً لشرور لم تحدث ٩ ـ خذ الاشياء من ناحيتها اللينة ١٠ ـ اذا غضبت فعد الى العشرة ، أما اذا غضبت جداً ، فعد الى المئة.

عن توماس جفرسن

حكومات الاسلام في هذا العصر ، وإن كانت قد قبلت الفكرة في فصل الدين عن الدولة ، وأقامت على ذلك نظاماتها المدنية ، فانها قد نصت مع ذلك في دساتيرها على أن دين الدولة الاسلام .

ولست أعرف حقيقة الباعث الذي حدى بالذين وضعوا تلك الدساتير على اثبات هذا النص . فالدولة شخص معنوي ، والنص على أن ذلك الشخص المعنوي له دين اسمه الاسلام ، أمر لا يخلو من التناقض . لأن هذا الشخص المعنوي إنما هو شخص مجرد ، أي إنه فكرة مجردة تقوم في الذهن ، ولا حيز لها في خارج الفكر . ولكني أعتقد أن هذا النص لم يثبت في دساتير الدول الاسلامية الا استجابة لوعي خفي مستمد من روح الاسلام ، وأنه دين ودولة معاً ، أملته على أولئك المشترعين روح اسلامية لم تخبُ في اعماقهم يوماً شعلتها ، وإن كانت قد استخفتها فانما كان استخفاؤها تحت ضغط ظروف ، لا حاجة بنا إلى الافاضة فيها الآن .

كل هذا لا لأقول أن روح الاسلام ، تلك الروح التي نشأت بنشوء الاسلام ، وستظل باقية ما بقي الاسلام ، والتي أنشأت أول نظام توحد من الدين والدولة وأدمجتهما معاً ، هي روح لا تفرق بين رعايا الدولة من حيث العقائد ، بل انها روح تقدس الحرية أولاً وتحمي رعاياها حماية بلغت منتهى درجات التسمح في تاريخ الدنيا .

فاذا قال أحدنا الجامعة الاسلامية ، فانما يعني جامعة عربية روحها الاسلام ، واذا قال أحدنا الجامعة العربية ، فانما يعني جامعة اسلامية روحها العروبة .

وكل قول بنابذ هذا القول خطأ . وكل نزعة تخالف هذه النزعة ، شعوبية خسيسة .

اسماعيل مظهر